مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف
محمد أحمد برانق

(٢٣)

غزوة تبوك

الطبعة الثالثة

دار المعارف

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج-م.ع.

obeikandl.com

عَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بِرُوحٍ طَيِّبَةٍ . وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ . بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِفَتْحِ مَكَّةَ . فَقَدْ كَانَ فِى فَتْحِ مَكَّةَ خَيْرٌ عَظِيمٌ لِلإِسْلامِ . وَنَصْرٌ مُبِينٌ لِلْمُسْلِمِينَ . فَلَمْ يَكُنْ أَثَرُ الْفَتْحِ أَنَّ أُمَّ الْقُرَى قَدْ دَانَتْ لِلرَّسُولِ . أَوْ أَنَّ بَيْتَ اللهِ قَدْ فُتِحَ لِحَجِّ الْمُسْلِمِينَ . أَوْ أَنَّ قُرَيْشًا الَّتِى نَاوَأَتْ وَعَادَتْ وَحَارَبَتْ مُحَمَّدًا ﷺ مُنْذُ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً قَدْ خَضَعَتْ وَأَسْلَمَتْ

obeikandi.com

لَهُ . بَلْ كانَ إِلَى جانِبِ هذا كُلِّهِ أَنَّ فى خُضُوعِ مَكَّةَ . وَفى تَطْهِيرِ بَيْتِ اللهِ . وَفى إِسْلامِ قُرَيْشٍ . مِنَ الأَثَرِ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِن هذا بالنِّسْبَةِ لِكُلِّ عَرَبِىٍّ يَحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللهِ . وَيَعْلَمُ مَا لِمَكةَ مِنَ الْمَكانَةِ فى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيةِ . ومَا لِقُرَيْشٍ مِنْ مَنْزِلَةٍ بَيْنَ رِجَالِ العَرَبِ . فَبِخُضُوعِ مَكَّةَ . وَبِفَتْحِ بَيْتِ اللهِ لِحَجِّ الْمُسْلِمِينَ وَبِإِسْلامِ قُرَيْشٍ – ضَمِنَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِدَعْوَتِهِ الانْتِشَارَ ، وَلِدِينِ اللهِ الَّذِى بَعَثَهُ بِهِ الْبَقَاءَ وَالخُلُودَ ؛ لِذلِكَ لَمْ تَلْبَثْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ طَوِيلاً بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ حَتَّى خَضَعَتْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَسْلَمَتْ لَهُ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَكْثَرُهَا فى ذلِكَ طَائِعًا مُخْتَارًا .

وَفى الْفَتْرَةِ الَّتِى تَلَتْ فَتْحَ مَكَّةَ وَغَزْوَةَ حُنَيْنٍ وَفَدَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ الأَفْرَادُ والْوُفُودُ .

وَكَانَ مِمَّنْ وَفَدُوا عَلَيْهِ لِيُقَدِّمُوا إِلَيْهِ طَاعَتَهُمْ وَيُعْلِنُوا إِسْلامَهُمْ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ الَّذِى كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ وَيَهْجُوهُ فى أَشْعَارِهِ فقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُجَيْرُ بْنُ

زُهَيْرٍ يُعْلِمُهُ بِمَا كَانَ مِنْ غَضَبِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّنْ كَانُوا يُؤْذُونَهُ وَيَهْجُونَهُ . وَيَصِفُ لَهُ كَيْفَ أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ ثُمَّ عَفَا عَنْ أَكْثَرِهِمْ عِنْدَمَا آمَنُوا بِهِ وَأَعْلَنُوا إِسْلامَهُمْ لَهُ ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَحْذُوَ حَذْوَهُمْ . فَيَأْتِيَ النَّبِيَّ تَائِبًا مُسْتَغْفِرًا لِيَعْفُوَ عَنْهُ . أَوْ أَنْ يَضْرِبَ فِي مَجَاهِلِ الأَرْضِ حَتَّى يَجِدَ لِنَفْسِهِ خَلاصًا وَأَمْنًا بَعِيدًا عَنْ سَطْوَةِ الإِسْلامِ الَّتِي تَكَادُ تَعُمُّ شِبْهَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

وَوَجَدَ اقْتِرَاحُ بُجَيْرٍ عَلَى أَخِيهِ كَعْبٍ – أَنْ يَأْتِيَ النَّبِيَّ مُسْلِمًا – وَجِيهًا فِي قَلْبِ كَعْبٍ . فَسُرْعَانَ مَا عَمِلَ عَلَى نَبْذِ عَدَاوَةِ النَّبِيِّ . وَوَفَدَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَبْغِي الإِسْلامَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَنَزَلَ كَعْبٌ بِالْمَدِينَةِ بِدَارِ رَجُلٍ يَعْرِفُهُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَصَدَ هُوَ وَالرَّجُلُ إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ . فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ مِنْ صَلاتِهِ تَقَدَّمَ كَعْبٌ مِنْهُ . وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَنَكِّرًا وَهُوَ يَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَ مِنْكَ تَائِبًا مُسْلِمًا . فَهَلْ

أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ إِنْ أَنَا جِئْتُكَ بِهِ ؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ : نَعَمْ .

قَالَ كَعْبٌ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ .

وَأَنْشَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَأَسْلَمَ كَعْبٌ . وَعَفَا النَّبِيُّ عَنْهُ .

وَمِنَ الْوُفُودِ الَّتِي وَفَدَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ مُسْلِمَةً وَفْدٌ مِنْ طَيِّئٍ عَلَى رَأْسِهِ رَئِيسٌ لَهُ اسْمُهُ زَيْدُ الخَيْلِ . وَكَانَ رَجُلاً كَامِلاً فَاضِلاً ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ :

مَاذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ ثُمَّ جَاءَنِي إِلا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ .

إِلا زَيْدَ الخَيْلِ فَإِنَّهُ لَمْ يُبَلَّغْ كُل مَا فِيهِ .

وَأَبْدَلَ الرَّسُولُ اسْمَ زَيْدِ الخَيْلِ . بِزَيْدِ الْخَيْرِ .

obeikandl.com

وبَعَثَ النَّبِى بِعلىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ فى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِهَدْمِ صَنَمِ طَيِّئٍ . وَعَلِمَ بِمَسِيرِهِمْ هذَا عَدِىُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِىُّ وَكَانَ ذَا مَكَانَةٍ كَبِيرَةٍ فى قَوْمِهِ . وَكَانَ يَدِينُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ . وَيُكِنُّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ . فَسَارَعَ بِالْخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ بِأَهْلِهِ ومَالِهِ قَبْلَ يَدْخُلَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ أَرْضَهُ . وَلكِنَّ أُخْتًا لَهُ اسْمُها سَفَّانَةُ تَخَلَّفَتْ . فَلَمْ تَخْرُجْ مَعَهُ . فَكَانَ أَنْ وَقَعَتْ فى السَّبَايَا الَّتِى سَبَاهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ مَا أَغَارُوا عَلَى طَيِّئٍ وَهَدَمُوا صَنَمَهَا . وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ بِغَنَائِمِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَوُضِعَتْ سَفَّانَةُ أُخْتُ عَدِىٍّ بِمَكَانٍ قُرْبَ بَابِ الْمَسْجِدِ كَانَتِ السَّبَايَا تُحْبَسُ فِيهِ عَادَةً حَتَّى يُتَصَرَّفَ فى أَمْرِهَا .

ومَرَّ الرَّسُولُ بِهذَا الْمَكَانِ فَوَقَفَتْ لَهُ سَفَّانَةُ تُنَاشِدُهُ أَنْ يُطْلِقَ سَرَاحَهَا وَهِىَ تَقُولُ :

يَارَسُولَ اللهِ . هَلَكَ الْوَالِدُ (تَعْنِى أَبَاهَا حَاتِمَ بْنَ عَدِىٍّ الذِى كَانَ مَعْرُوفًا

بَيْنَ الْعَرَبِ بِالجُودِ وَالْكَرَمِ) وَغَابَ الْوَافِدُ . فَامْنُنْ عَلَيْنَا . مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ !
فَسَأَلَهَا الرَّسُولُ : مَنْ وَافِدُكِ ؟

قَالَتْ : عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ . قَالَ : الفَارُّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ؟ !

ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا . وَلَمْ يَسْمَعْ لِشِكَايَتِهَا . وَتَكَرَّرَ سُؤَالُ سَفَّانَةَ لِلرَّسُولِ . وَتَكَرَّرَ إِعْرَاضُ الرَّسُولِ عَنْهَا . حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَيْئَسَ مِنْ إِمْكَانِهَا نَيْلَ رِضَاهُ وَالْوُصُولَ إِلَى عَفْوِهِ .

وَلَكِنَّ سَفَّانَةَ عَادَتْ وَكَرَّرَتِ الرَّجَاءَ عَلَى الرَّسُولِ فَنَالَتْ مَا كَانَتْ تُرِيدُ . وَحَصَلَتْ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ تَبْغِي .

فَقَدْ عَفَا الرَّسُولُ عَنْهَا وَأَطْلَقَ سَرَاحَهَا . وَزَوَّدَهَا بِمَا يَكْفُلُ لَهَا اللَّحَاقَ بِأَخِيهَا بِالشَّامِ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً .

وَوَقَعَ فِي نَفْسِ عَدِيٍّ مَاذَكَرَتْهُ لَهُ سَفَّانَةُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمَا أَكْرَمَهَا بِهِ . مَوْقِعًا حَسَنًا . فَسَارَعَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْمَدِينَةِ حَيْثُ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ إِلَيْهِ .

وَفِى هذِهِ الآونَةِ كَانَتْ رسُلُ مُحَمَّدٍ وَصَيَارِفَتُهُ يَجُوبُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ . كُلٌّ فِيمَا أَرْسَلَهُ النَّبِىُّ فِيهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْمَعُ فَرِيضَةَ زَكَاةِ الْعُشْرِ الَّتِى فَرَضَهَا النَّبِىُّ لِلفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِياءِ بَعْدَ مَا فُتِحَتْ مَكَّةُ . وَأَصْبَحَ بَيْتُ اللهِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الشُّئُونِ تَحْتَ إِدَارَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَزَادَتْ نَفَقَاتُ الْمُسْلِمِينَ تَبَعًا لِذلِكَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْبِى الْجِزْيَةَ التِى فُرِضَتْ عَلَى الْقَبَائِلِ الَّتِى لَمْ تَدْخُلْ فى الإِسْلامِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو لِدِينِ اللهِ وَيُفَقِّهُ فِيهِ . وَقُوبِلَ أَكْثَرُ الرُّسُلِ بِقَبُولٍ حَسَنٍ . وَرُدَّ بَعْضُهُمْ رَدًّا سَيِّئًا .

سَارَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى جَيْفَرَ وَعَمْرو ابْنَى الجُلُنْدَى أَمِيرَىْ عُمَانَ ؛ فَأَخَذَ الصَّدَقَاتِ مِنَ الأَغْنِياءِ وَوَزَّعَها عَلَى الْفُقَرَاءِ . وَحَصَّلَ الجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ – وَكَانَ لا يَزَالُ أَكْثَرُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ – وعَادَ بِهَا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .

وخَرَجَ رَسُولٌ لمُحَمَّدٍ ﷺ لِجَمعِ الزَّكَاةِ وَالْجِزْيَةِ مِنْ خُزَاعَةَ وَبَنِى تَمِيمٍ . فَجَمَعَتْ خُزَاعَةُ لِلرَّسُولِ مِنْ أَمْوَالِهَا الشَّىْءَ الْكَثِيرَ لِيَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُرِيدُ ؛

أَمَّا بَنُو تَمِيمٍ فَقَدِ امْتَنَعُوا عَنْ إِخْرَاجِ أَمْوَالِهِمْ ، وَشَهَرُوا سُيُوفَهُمْ فِى وَجْهِ رَسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُهَدِّدِينَ لَهُ ، فَعَادَ هذَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَخْبَرَ النَّبِىَّ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ .

فَأَرْسَلَ النَّبِىُّ بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَأْسِهِمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ لِمُحَارَبَةِ بَنِى تَمِيمٍ بِمَا فَعَلُوا . وَكَانَ أَنْ عَادَ عُيَيْنَةُ وَصَحْبُهُ إِلَى النَّبِىِّ بِعَدَدٍ مِنْ أَسْرَى بَنِى تَمِيمٍ . وَعَدَدٍ آخَرَ مِنْ سَبَايَاهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ .

وَأَوْفَدَتْ تَمِيمٌ وَفْدًا مِنْهَا لِمُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ بِشَأْنِ أَسْرَاهُمْ وَسَبَايَاهُمُ الَّذِينَ أَسَرَ الْمُسْلِمُونَ وَسَبَوْا ؛ فَلَمَّا أَتَوْا مَسْجِدَ الرَّسُولِ بِالْمَدِينَةِ . وَقَفُوا يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ بِمَا تَأَذَّى لَهُ الرَّسُولُ فِى نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا خَرَجَ وَجَلَسَ إِلَيْهِمْ . انْتَدَبُوا مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلاً عُرِفَ فِيهِمْ بِفَصَاحَةِ اللِّسَانِ وَبَلاغَةِ الْقَوْلِ لِيَتَكَلَّمَ عَنْهُمْ .

وَتَكَلَّمَ خَطِيبُهُمْ هذَا وَاسْمُهُ عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ . فَفَاخَرَ بِأَنْسَابِ قَوْمِهِ . وَعَدَّدَ مَنَاقِبَهُمْ وَأَشَادَ بِفَضْلِهِمْ . مُتَحَدِّيًا مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يُطَاوِلَهُمْ

وَيَبْلُغَ مَبْلَغَهُمْ . فَأَشَارَ النَّبِىُّ إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ - وَكَانَ جَهْوَرِىَّ الصَّوْتِ . وَمِنْ أَقْوَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْخَطَابَةِ - لِيَرُدَّ عَلَى خَطِيبِ بَنِى تَمِيمٍ .

فَنَهَضَ ثَابِتٌ وَارْتَجَلَ كَلِمَةً قَوِيَّةً فِى عِبَارَتِهَا . بَلِيغَةً فِى مَدْلُولِهَا . سُرَّ مِنْهَا النَّبِىُّ . وَطَابَتْ لَهَا نُفُوسُ مَنْ بِالْمَجْلِسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهَا وَبَلاغَتِهَا بَنُو تَمِيمٍ ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِمْ فَخْرُ السَّبْقِ عَلَيْهِمْ فِى فَصَاحَةِ الْقَوْلِ وَبَلاغَتِهِ . فَقَدَّمُوا شَاعِرَهُمُ الزِّبْرِقَانَ بْنَ بَدْرٍ وَهُمْ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ : ائْذَنْ لِشَاعِرِنَا !

فَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ . قَامَ الزِّبْرِقَانُ فَأَنْشَدَ شِعْرًا فِى الْمُبَاهَاةِ بِقَوْمِهِ وَالْمُفَاخَرَةِ بِحَسَبِهِمْ وَنَسَبِهِمْ . فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ إِنْشَادِهِ طَلَبَ النَّبِىُّ إِلَى شَاعِرِ الْمُسْلِمِينَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ الرَّدَّ عَلَيْهِ .

فَقَامَ حَسَّانُ فَأَنْشَدَ مِنْ رَوَائِعِ الشِّعْرِ مَا أَشَادَ فِيهِ وَفَاخَرَ بِأَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ . وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ وَالْمُسْلِمُونَ فِى سُرُورٍ وَاغْتِبَاطٍ بِمَقَامِ ثَابِتٍ وَحَسَّانَ مِنْ

obeikandl.com

بَنِى تَمِيمٍ . وَبَنُوا تَمِيمٍ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ :

إِنَّ هذَا الرَّجُلَ مُؤَيَّدٌ ... ! وَمُؤَتًّى لَهُ ... ! وَاللهِ لَخَطِيبُهُ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا .. وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا ! وَلَهُوَ أَحْلَمُ مِنَّا .. ! فَأَسْلِمُوا لَهُ !

وَعَلَى ذلِكَ أَسْلَمَ مَنْ كَانَ لَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ .. وَرَدَّ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ أَسْرَاهُمْ وَسَبَايَاهُمْ . وَأَجَازَهُمْ جَمِيعًا إِجَازَةً حَسَنَةً . وَلَمَّا سَأَلَهُمْ : هَلْ بَقِىَ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَمْ نَجِزْهُ ؟

قَالُوا : غُلامٌ صَغِيرٌ فِى رَحْلِنَا . قَالَ : أَرْسِلُوهُ نُجِزْهُ .

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ! إِنَّهُ غُلامٌ لا شَرَفَ لَهُ !

قَالَ : إِنَّهُ وَافِدٌ وَلَهُ حَقٌّ !

فَأَرْسَلُوهُ إِلَى الرَّسُولِ فَأَجَازَهُ . وَانْصَرَفُوا جَمِيعًا وَكُلُّهُمْ يَوَدُّ لَوْ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لإِرْضَاءِ الرَّسُولِ .

وَهكذَا كَانَ هذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا سُقْنَا مَثَلاً لِمَا كَانَ يَجِدُ الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ عِنْدَ

بَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مِنَ اسْتِعْدَادٍ لِتَقَبُّلِ الدَّعْوَةِ . وَسُهُولَةٍ فى اتِّبَاعِ فَرَائِضِها .
وَمَا كَانُوا لا يَزَالُونَ يُلاقُونَهُ فى دَعْوَتِهِمْ مِنْ عَنَتٍ وَشِدَّةٍ عِنْدَ بَعْضِهِمُ الآخَرِ .

obeikandl.com

عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْصَرِفَ أَكْثَرُ تَفْكِيرِهِ فى هذِهِ الآوِنَةِ إلا إِلَى الْعَمَلِ عَلَى تَأْمِينِ حُدُودِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ شَمَالاً حَيْثُ تَقَعُ بِلاَدُ الشَّامِ وَهِىَ واقِعَةٌ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الرُّومَانِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُهُ إلا إِثْبَاتُ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْمَلأ حَتَّى لا يَطْمَعَ فِيهِمْ طَامِعٌ ، ولا يُحَدِّثَ امْرُؤٌ نَفْسَهُ بِإِمْكَانِ التَّغَلُّبِ عَلَيْهِمْ ، والنَّيْلِ مِنْهُمْ .

obeikandl.com

وَعَلَى ذلِكَ لَمْ يَكَدْ يَصِلُ إِلَى الرَّسُولِ الْخَبَرُ بِأَنَّ الرُّومَانَ يَطْمَعُونَ فى الإِغَارَةِ عَلَى حُدُودِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ لِيَنَالُوا مِنْهَا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَافَاتَهُمْ فى غَزْوَةِ مُؤْتَةَ . حَتَّى نَادَى الرَّسُولُ وَأَعْلَنَ فى طُولِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَعَرْضِهَا بِوُجُوبِ حَشْدِ الْجُمُوعِ وَاسْتِعْدَادِ كُلِّ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْقِتَالِ لِلْخُرُوجِ إِلَى الرُّومِ لِصَدِّهِمْ وَوَقْفِهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ . وَبِذلِكَ خَالَفَ النَّبِىُّ مَا عُهِدَ عَنْهُ مِنْ كِتْمَانِ وِجْهَتِهِ التى يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا إِذَا مَا اعْتَزَمَ الْخُرُوجَ لِلْقِتَالِ .

وَكَانَ مَا حَدَا بِالرَّسُولِ إِلَى الْخُرُوجِ عَمَّا عُرِفَ عَنْهُ مِنَ الْكِتْمَانِ . هُوَ بُعْدُ الشُّقَّةِ نَحْوَ الْوِجْهَةِ الَّتِى يُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَيْهَا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَشِدَّةُ الْحَرِّ . وَازْدِيَادُ الْقَيْظِ . مِمَّا يَسْتَدْعِى عِنَايَةً كَبِيرَةً لِتَجْهِيزِ الْجَيْشِ . وَإِعْدَادِهِ إِعْدَادًا حَسَنًا قَوِيًّا .

لِذَا أَرْسَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَطْلُبُ مِنْهُمُ التَّبَرُّعَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِتَجْهِيزِ الْجَيْشِ ؛ فَلَبَّى الْكَثِيرُونَ مِنْهُمُ النِّدَاءَ . وَجَادُوا لِذلِكَ بِمَا

obeikandi.com

سَمَحَتْ أَنْفُسُهُمْ . وَوَسِعَتْ أَمْوَالُهُمْ ؛ وَبَلَغَت الحَمَاسَةُ ببعْضِهِمْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِأَمْوَالِهِ كُلِّهَا إِلَى الرَّسُولِ فَأَخَذَ مِنْهَا مَا أَخَذَ وَرَدَّ الْبَاقِيَ ، وَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِنِصْفِ أَمْوَالِهِ . أَمَّا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَدْ بَلَغَ مَا دَفَعَهُ فى ذلِكَ أَلْفًا مِنَ الدَّنَانِيرِ . وَهِيَ فى ذلِكَ الزَّمَانِ كَثِيرٌ جِدًّا .

هذَا مَا فَعَلَهُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ مِنَ الْمُوسِرِينَ ، أَمَّا منْ كانُوا مِنْ مُتَوَسِّطِي الحَالِ فَقَدْ قَامُوا عَلَى تَجْهِيزِ أَنْفُسِهِمْ . وَإِعْدَادِ زَادِهِمْ ؛ وَزَادَ بَعْضُهُمْ فَكَانَ يَأْتِى بِالْبَعِيرِ مُجَهَّزًا إِلَى الرَّسُولِ لِيَحْمِلَ عَلَيْهِ نَفَرًا أَوْ نَفَرَيْنِ بِالتَّنَاوُبِ . أَمَّا مَنْ كَانُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ لا يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ عَلَى أَمْرِهِمْ وَلا يَمْلِكُونَ تَجْهِيزَ أَنْفُسِهِمْ . فَقَدْ جَاءُوا إِلَى الرَّسُولِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ مَعَهُ . فَحَمَلَ مَنِ اسْتَطَاعَ تَجْهِيزَهُ مِنْهُمْ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَدِ اعْتَذَرَ لَهُمْ . فَانْصَرَفُوا مَحْزُونِينَ تَسِيلُ دُمُوعُهُمْ عَلَى وَجَنَاتِهِمْ حَسْرَةً عَلَى مَا سَيَفُوتُهُمْ مِنَ الْجِهَادِ مَعَ الرَّسُولِ فى سَبِيلِ اللهِ . حَتَّى سُمُّوا لِذلِكَ بِالْبَكَّائِينَ !

هذَا مَا كَانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ المُخْلِصِينَ . أَمَّا مَا كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَقَدِ استَاءُوا وَتَذَمَّرُوا وَأَبْدَوُا امْتِعَاضَهُمْ مِنْ أَنْ يُغَادِرُوا دِيَارَهُمْ فى هذَا الْجَوِّ الصَّائِفِ الْحَارِّ . وَيَتْرُكُوا مَزَارِعَهُمْ وَقَدْ أَخْرَجَتْ زَرْعَهَا . وَبَسَاتِينَهُمْ وَقَدْ أَثْمَرَتْ ثَمَرَهَا – لِيَقْطَعُوا الشُّقَّةَ إِلَى حُدُودِ الشَّامِ مُجْتَازِينَ فى سَبِيلِ ذلِكَ الصَّحْرَاءَ بِرِمَالِهَا الْمُحْرِقَةِ وَشَمْسِهَا الْقَائِظَةِ .

وَزَادَ بَعْضُهُمْ فى نِفَاقِهِمْ . فَصَارُوا يُحَرِّضُونَ النَّاسَ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ رَسُولِ اللهِ وَهُمْ يَقُولونَ لَهُمْ : لا تَنْفِرُوا فى الْحَرِّ .

وَتَقَدَّمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَسْتَأْذِنُونَهُ فى التَّخَلُّفِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الْجَيْشِ وَيَتَعَلَّلُونَ فى ذلِكَ بِشَتَّى الْعِلَلِ . وَيَعْتَذِرُونَ بِمُخْتَلِفِ الأَعْذَارِ .

وَعَلِمَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنَّ هُنَاكَ جَمَاعَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ أَخَذُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَحْرِيضَ النَّاسِ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ الخُرُوجِ لِلْقِتَالِ . وَاتَّخَذُوا لِذلِكَ بَيْتَ سُوَيْلِمٍ الْيَهُودِىِّ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِتَدْبِيرِ خِطَطِهِمْ وَتَنْفِيذِ غَرَضِهِمْ . فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ

obeikandi.com

طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ فى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَحَرَّقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتَ . فَاقْتَحَمُوا النِّيرَانَ هَارِبِينَ ، وَقَفَزَ أَحَدُهُمْ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَكُسِرَتْ رِجْلُهُ . وَبِذَلِكَ كَانُوا مَثَلاً وعِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ .

وَوَفَدَتْ جَمَاعَاتُ الْعَرَبِ . وَأَتَى رِجَالُ الْقَبَائِلِ . وَتَمَّ اجْتِمَاعُ الْمُقَاتِلِينَ جَمِيعًا خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَعَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ . حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ إِعْدَادُ الْجَيْشِ . وَفَرَغَ النَّبِىُّ مِنْ شُئُونِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَوَضَعَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ . وَتَرَكَ عَلَى أَهْلِهِ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ . خَرَجَ لِيَقُودَ الْجَيْشَ إِلَى حُدُودِ الشَّامِ لِمُقَاتَلَةِ الرُّومِ . وَقَدْ بَلَغَ تَعْدَادُ الْمُسْلِمِينَ الْخَارِجِينَ لِلْقِتَالِ ثَلاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ .

يَا أَللهُ ... ! إِنَّهُ لَعَمْرُ الْحَقِّ جَيْشٌ جَدِيرٌ بِأَنْ يَفْخَرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ ... !

وَذلِكَ بِرَغْمِ تَخَلُّفِ الْمُتَخَلِّفِينَ ، وَاعْتِذَارِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ... !

وَسَارَ هذَا الْجَيْشُ الْعَرَمْرَمُ مُخْتَرِقًا صَحْرَاءَ تَكَادُ تَشْتَعِلُ حَصْبَاؤُهَا نَارًا . وَتَضْطَرِمُ رِمَالُهَا لَهِيبًا ؛ وَبِالْمَدِينَةِ جَلَسَ الْمُتَخَلِّفُونَ النَّافِرُونَ مِنَ الْحَرِّ .

obeikandl.com

يَنْعَمُونَ بِظلٍّ ظَلِيلٍ . وَمَاءٍ سَلْسَبِيلٍ . وَجَوٍّ جَمِيلٍ . فَمَاذَا - يَا تُرَى - كَانَ شُعُورُهُمْ وَرَسُولُ اللهِ وَأَصْحَابُهُ فى الْحَرِّ وَالْهَجِيرِ ؟ !

كَانَ أَكْثَرُهُمْ - بِلا شَكٍّ - يَحْمَدُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَطَاعَ التَّخَلُّفَ وَالْبَقَاءَ فى مَزَارِعِهِ وَبَسَاتِينِهِ وَدِيَارِهِ . وَكَانَ فِيهِمْ - بِلا شَكٍّ - مَنْ أَخَذَهُ النَّدَمُ عَلَى تَخَلُّفِهِ عَنِ الْخُرُوجِ بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ .

رَجَعَ أَبُو خَيْثَمَةَ إِلَى بُسْتَانٍ لَهُ بَعْدَ خُرُوجِ الرَّسُولِ . فَوجدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ هُنَاكَ قَدْ رَشَّتْ كُلٌّ مِنْهُمَا عَرِيشَهَا . وبَرَّدَتْ لَهُ فِيهِ مَاءً . وَهَيَّأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَامًا . فَلَمَّا رَأَى مَاصَنَعَتَا قَال :

رَسُولُ اللهِ فى الشَّمْسِ وَالرِّيحِ وَالْحَرِّ . وَأَبُو خَيْثَمَةَ فى ظِلٍّ بَارِدٍ . وَطَعَامٍ مُهَيَّأٍ . وَامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ . وَفى مَالِهِ مُقِيمٌ .. !! مَاهذَا بِالنَّصَفِ ... ! هَيْئًا لِى زَادًا حَتَّى أَلْحَقَ بِهِ .

فَهَيَّأَتْ لَهُ زَوْجَتَاهُ مَا أَرَادَ . فَأَخَذَهُ وَرَكِبَ بَعِيرَهُ . وخَرَجَ يَجِدُّ حَتَّى لَحِقَ

بِالْجَيْشِ.

وكَانَ الرَّسُولُ إِذَا سَأَل أَصْحَابَهُ عَنْ أَحَدٍ وَوَجَدَهُ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ قَالَ : إِذَا كَانَ بِهِ خَيْرٌ فَسَيَلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ.

وَلَحِقَ بِالرَّسُولِ بَعْدَ خُرُوجِهِ غَيْرَ أَبِى خَيْثَمَةَ نَفَرٌ آخَرُ مِنَ الرِّجَالِ. كَانَ فِيهِمْ أَبُو ذَرٍّ الَّذِى لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُهُ عَنْ تَرَاخٍ أَوْ تَهَاوُنٍ أَوْ نِفَاقٍ. وَإِنَّمَا كَانَ لِعَجْزِ بَعِيرِهِ عَنِ السَّيْرِ. مِمَّا اضْطَرَّهُ إِلَى النُّزُولِ عَنْهُ. وَقَطَعَ الْمَسَافَةَ فِى أَعْقَابِ الْجَيْشِ مَاشِيًا.

وَلَمَّا رَآهُ الرَّسُولُ مُقْبِلاً وَقَدْ عَسكَرَ الْجَيْشُ فِى مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِ قَالَ لَهُ : مَرْحَبًا بِأَبِى ذَرٍّ ! مَا خَلَّفَكَ ؟

فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَبُو ذَرٍّ خَبَرَهُ. قَالَ : إِنْ كُنْتَ لَمِنْ أَعَزِّ أَهْلِى عَلَىَّ تَخَلُّفًا !! يَا أَبَا ذَرٍّ ! لَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ بِكُلِّ خَطْوَةٍ ذَنْبًا إِلَى أَنْ بَلَغْتَنِى.

وَسَارَ جَيْشُ الْعُسْرَةِ. وَقَدْ سُمِّىَ بِهذَا الاسْمِ لِمَا لَقِىَ فِى تَكْوِينِهِ مِنْ

شِدَّةٍ . وَلمَا تَكبَّدَ فى تَمْوِيلِهِ مِنْ عُسْرٍ . حَتَّى نَزَلَ بِالْحِجْرِ وَبِهَا أَطْلالٌ مَنْقُورَةٌ فى الصَّخْرِ لِمَنَازِلِ ثَمُودَ قَوْمِ النَّبِىِّ صَالِحٍ . الَّذِينَ عَصَوْا نَبِيَّهُمْ . فَأَرْسَلَ اللهُ الصَّاعِقَةَ فَصَعَقَتْهُمْ . وَهُنَاكَ عَلَى بِئْرِهَا نَزَلَ الرِّجَالُ يَغْتَسِلُونَ وَيَسْتَقُونَ لإِبِلِهِمْ . وَيَسْتَعِدُّونَ لِطَهْوِ طَعَامِهِمْ . وَعَجْنِ عَجِينِهِمْ ؛ وَلكِنَّ النَّبِىَّ قَالَ لَهُمْ : لا تَشْرَبُوا مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ . وَلا تَتَوَضَّئُوا مِنْهُ لِلصَّلاةِ . وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوهُ فَاعْلِفُوهُ لِلإِبِلِ . وَلا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا ! !

فَتَجَنَّبَ النَّاسُ الْوُضُوءَ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ . وَأَرَاقُوا مَا كَانُوا قَدْ عَبَّؤُهُ مِنْ مَائِهَا .

وَقَالَ النَّبِىُّ أَيْضًا يُحَذِّرُهُمْ :

لا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ إِلا وَمَعَهُ صَاحِبٌ .

وَعَمِلَ رِجَالُ الْجَيْشِ بِمَشُورَةِ الرَّسُولِ فَسَلِمُوا . إِلا رَجُلَيْنِ خَرَجَ أَحَدُهُمَا فى حَاجَةٍ لَهُ فَطَمَرَتْهُ رِمَالُ الْعَواصِفِ . وَفَقَدَ الثَّانِى بَعِيرَهُ فَخَرَجَ يَتَفَقَّدُهُ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ فَأَطَاحَتْ بِهِ .

وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَارْتَحَلَ الْجَيْشُ . وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَ الْمَاءَ لِشُرْبِهِمْ وَسَدِّ جَاتِهِمْ فَلا يَجِدُونَهُ ، فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ . وَهُمْ يَقُولُونَ : يَارَسُولَ اللهِ ! ادْعُ لَنَا اللهَ .

وَكَانَ اللهُ رَحِيمًا بِهِمْ .. فَمَا لَبِثُوا حَتَّى رَأَوْا سَحَابَةً تَتَجَمَّعُ مِنْ فَوْقِهِمْ . ثُمَّ تُمْطِرُهُمْ مَطَرًا غَزِيرًا ، سَالَتْ لَهُ الأَرْضُ غُدْرَانًا . فَشَرِبُوا وَارْتَوَوْا ، وَقَضَوْا حَاجَاتِهِمْ . وَمَلَئُوا أَوْعِيَتَهُمُ التِى يَحْمِلُونَ وَهُمْ فَرِحُونَ . يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهَا مُعْجِزَةٌ سَاقَهَا اللهُ لِلرَّسُولِ .

فَيَقُولُ مُنَافِقٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ صَحِبُوا الْجَيْشَ نِفَاقًا وَرَغْبَةً فِى الْغَنِيمَةِ : إِنَّمَا هِىَ سَحَابَةٌ حَارَّةٌ .

وَلَمْ يَتْرُكِ الْمُنَافِقُونَ الْمُصَاحِبُونَ لِلْجَيْشِ رِيَاءَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ . وَلَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ تَثْبِيطِ النَّاسِ عَنِ الْقِتَالِ . وَالْعَمَلِ عَلَى قَتْلِ هِمَمِهِمْ . وَتَخْذِيلِ مَعْنَوِيَّتِهِمْ . فَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّاسِ :

أَتَحْسَبُونَ جِلادَ بَنِى الأَصْفَرِ - وَهُمُ الرُّومُ - كَقِتَالِ العَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ... ! وَاللهِ لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فى الْحِبَالِ .. !

وَاشْتَدَّ الْجَدَلُ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، والنَّبِىُّ فى مَجْلِسٍ نَاءٍ لا يَسْمَعُ لِحَدِيثِهِمْ . ثُمَّ إِذَا بِهِ يَقُولُ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ : يَاعَمَّارُ ، أَدْرِكِ الْقَوْمَ ، فَإِنَّهُمْ قَدِ اقْتَرَفُوا إِثْمًا .

وَذَهَبَ عَمَّارٌ إِلَى الْقَوْمِ فَنَبَّأَهُمْ بِمَا أُوحِىَ إِلَى الرَّسُولِ مِنْ أَمْرِهِمْ . فَجَاءُوا إِلَى الرَّسُولِ يَعْتَذِرُونَ وَيَقُولُونَ : يَارَسُولَ اللهِ ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ .

وَمِمَّا كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا أَنْ ضَلَّتْ نَاقَةُ الرَّسُولِ يَوْمًا وَخَرَجَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلْبَحْثِ عَنْهَا فَلَمْ يَقِفُوا لَهَا عَلَى أَثَرٍ . فَقَالَ زَيْدُ بْنُ اللصِيتِ لِمَنْ يُجَالِسُهُ ، وَكَانَ يَجْلِسُ فى رَحْلِ رَجُلٍ اسْمُهُ عِمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ :

هذَا مُحَمَّدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ مِنَ السَّمَاءِ . وَهُوَ لا يَدْرِى أَيْنَ نَاقَتُهُ ! !

obeikandl.com

وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَجْلِسُ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ عِمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ فَقَالَ لَهُمْ :

إِنَّ رَجُلا قَدْ قَالَ ... « وَذَكَرَ مَا قَالَ زَيْدٌ عَنِ النَّاقَةِ » وَإِنِّى وَاللهِ مَا أَعْلَمُ إِلا مَا عَلَّمَنِى اللهُ . وَقَدْ دَلَّنِى اللهُ عَلَيْهَا .

ثمَّ ذَكَرَ لَهُمْ مَكَانَهَا . فَذَهَبُوا إِلَيْهِ فَوَجَدُوهَا هُنَاكَ فَأَتَوْا بِهَا .

وَرَاحَ عِمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ إِلَى رَحلِهِ يَقُصُّ عَلَى مَنْ فِيهِ مَا كَانَ مِنَ الرَّسُولِ . وَمَا تَنَبَّأَ بِهِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ السَّامِعِينَ : زَيْدٌ وَاللهِ قَالَ مَاتَنَبَّأَ بِهِ الرَّسُولُ .

فَأَقْبَلَ عِمَارَةُ عَلَى زَيْدٍ يَضْرِبُهُ وَيُوكِزُ فِى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ : إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ ! إِنَّ فِى رَحْلِى لَدَاهِيَةً وَمَا أَشْعُرُ . اخْرُجْ أَىْ عَدُوَّ اللهِ مِنْ رَحْلِى فَلا تَصْحَبْنِى .

وَوَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَبُوكَ عَلَى حُدُودِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَحُدُودِ الشَّامِ الذِى يَقَعُ تَحْتَ حُكْمِ الرُّومِ . وَهُنَاكَ عَلِمَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنَّ الرُّومَ قَدْ تَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ دَاخِلَ بِلادِهِمْ . وَأَنَّهُمْ لَنْ يُوَاجِهُوهُ وَجْهًا لِوَجْهٍ .

obeikandl.com

وجَمَعَ الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ يَسْتَشِيرُهُمْ فى الْمَسِيرِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَى دَاخِلِ بِلاد الشَّامِ حَيْثُ يتحَصَّنُ جُنْدُ الرُّومِ لِقِتالِهِمْ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :

يَا رَسُولَ اللهِ . إِنْ كُنْتَ أُمِرْتَ بِالْمَسِيرِ فَسِرْ !

فَأَجَابَ الرَّسُولُ : لَوْ أُمِرْتُ بِهِ مَا اسْتَشَرْتُكمْ فِيهِ !

وَتَشَاوَرَ أَصْحَابُ النَّبِىِّ فى الأَمْرِ . وتَبَاحَثُوا فِيهِ . وَارْتَأَوْا أَلّا يَتَقَدَّمَ الْجَيْشُ إِلَى داخِلِ بِلادِ الرُّومِ وَأَنْ يَكْتَفُوا مِنْ هذِهِ الْغَزْوَةِ بِمَا أَلْقَوْهُ مِنَ الرُّعْبِ والْفَزَعِ فى قُلُوبِ الرُّومَانِ حَتَّى أَلْجَئُوهُمْ إِلَى التَّحَصُّنِ فى حُصُونِهِمْ فى دَاخِلِ بِلادِهِمْ ، وَبِمَا عَلِمَ الرُّومَانُ وَعَلِمَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْمَمالِكِ وَالْقَبَائِلِ الْمُتَاخِمَةِ لَهُمْ . بِمَا أَضْحَى لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ عَظَمَةٍ . وَمَا أَصْبَحُوا عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَكَثْرَةٍ .

وَعَلَى هذِهِ الْحُدُودِ عَسْكَرَ الرَّسُولُ بِجَيْشِهِ الْكَبِيرِ . وَمَرَّتْ أَيَّامٌ دُونَ إِشَارَةٍ تُنْبِئُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُفَكِّرُ فى مُحَارَبَتِهِ أَوِ التَّعَرُّضِ لَهُ ، فَهَلْ أَمِنَ مُحَمَّدٌ ﷺ الآنَ عَلَى حُدُودِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَبَاتَ لا يَشْغَلُهُ أَمْرُ زَحْفِ الرُّومَانِ عَلَيْهَا .. ؟ !

لا . لَمْ يَكْتَفِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا رَأَى مِنْ ظَاهِرَةٍ تُنْبِئُ أَنَّ الرُّومَانَ قَدْ بَاتُوا يَخْشَوْنَ مُحَمَّدًا ﷺ . وَيَحْسِبُونَ حِسَابَ الْمُسْلِمِينَ ، بَلْ رَأَى أَنْ يَعْمَلَ أَيْضًا عَلَى تَأْمِينِ هذِهِ الْحُدُودِ . بِمُعَاهَدَاتٍ وَمُحَالَفَاتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الإِمَارَاتِ وَالْمَمَالِكِ .

فَبَعَثَ إِلَى يُوحَنَّا بْنِ رُؤْبَةَ صَاحِبِ أَيْلَةَ – وَكَانَ نَصْرَانِيًّا – يَعْرِضُ عَلَيْهِ : إِمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِى طَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِمَّا أَنْ يُغْزَوَهُ . فَجَاءَ يُوحَنَّا إِلَى الرَّسُولِ وَعَلَى صَدْرِهِ صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَدَّمَ طَاعَتَهُ . فَقَرَّرَ عَلَيْهِ النَّبِى جِزْيَةً مِقْدَارُهَا ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ ، وَكَتَبَ لَهُ عَهْدًا أَمَّنَ فِيهَا أَهْلَ أَيْلَةَ وَكُلَّ مَنْ صَاحَبَهُمْ بَرًّا وَبَحْرًا .

كَذلِكَ كَتَبَ الرَّسُولُ مِثْلَ هذَا الْعَهْدِ . وَأَعْطَى مِثْلَ هذَا الأَمَانِ . لأَهْلِ جَرْبَاءَ ، وَأَهْلِ أَذْرُحَ بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِمْ مَا يُنَاسِبُهُمْ مِنَ الْجِزْيَةِ .

أَمَّا أُكَيْدِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الكِنْدِىُّ النَّصْرَانِىُّ أَمِيرُ دُومَةَ فَقَدْ كَانَ النَّبِىُّ

لا يَأْمَنُ جَانِبَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ خَالد بْنَ الْوَلِيدِ فى خَمْسِمِائةٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَلْحَقَ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْهُ .

وَلَمْ يَجِدِ النَّبِىُّ بَعْدَ ذلِكَ سَبَبًا يَدْعُو لِبَقَاءِ جَيْشِهِ بِتَبُوكَ . فَالْجَيْشُ كَبِيرٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَمْوِينٍ وَإِلَى غِذَاءٍ . وَشُقَّةُ الْعَوْدَةِ طَوِيلَةٌ بَعِيدَةٌ تَسْتَنْفِدُ كُلَّ مَا أَصْبَحَ مَعَهُمْ مِنْ طَعَامٍ وَزَادٍ .

وَعَلَى ذلِكَ أَصْدَرَ النَّبِىُّ أَمْرَهُ بِالْعَودَةِ فَشَدَّ الْجَيْشُ رِحَالَهُ وَكَرَّ عَائِدًا نَحْوَ الْمَدِينَةِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ يُؤْمِنُونَ بِمَا نَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَاءِ خُرُوجِهِمْ هذَا مِنْ مَزَايَا ، وَبِمَا أَصَابُوا مِنْ رِبْحٍ مَعْنَوِىٍّ كَبِيرٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَيْشِ يُسَائِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا :

لِمَ كَانَ خُرُوجُنَا فى هذَا الْحَرِّ الْقَائِظِ ، وَتَرْكُنَا لِزَرْعِنَا وَلِثِمَارِنَا وَقَدْ أَوْشَكَتَا عَلَى الْجَمْعِ وَالْحَصَادِ ثُمَّ عَوْدَتُنَا دُونَ حَرْبٍ ، وَدُونَ غَنِيمَةٍ ؟ !

وَوَجَدَ الْمُنَافِقُونَ لَهُمْ فى ذلِكَ مَرْتَعًا خِصْبًا ، لِيَنَالُوا مِنَ الرَّسُولِ مَنَالاً

سَهْلاً . فَتَجَرَّأَ نَفَرٌ مِنْهُمْ عَلَى عِصْيَانِ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِهِ . وَاشْتَطَّ نَفَرٌ آخَرُ حَتَّى فَكَّرُوا فى أَنَّهُمْ قَدْ يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ عَلَى إِيذَائِهِ .

وَهكَذَا كَانَ يُلاقِى الرَّسُولُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فى عَوْدَتِهِ بِجَيْشِ الْعُسْرَةِ مَا كَانَ أَمْرُهُ عَسِيرًا ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُدْرِكَ مَا يُدَبِّرُ لَهُ الْمُنَافِقُونَ فى الْخَفَاءِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الشَّاقِّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلافَاهُ وَيُفْسِدَ تَدْبِيرَهُ . وَأَنْ يَضْرِبَ بِشِدَّةٍ عَلَى أَيْدِى الْمُنَافِقِينَ الْمُفْسِدِينَ .

وَكَانَ مِمَّا عَمِلَ الرَّسولُ لأَخْذِ الْمُنَافِقِينَ بِالشِّدَّةِ . وَعَدَمِ الْهَوَادَةِ فى زَجْرِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ : أَنْ كَانَ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُنَافِقِين قَدْ بَنَوْا لَهُمْ مَسْجِدًا بِذِى أَوَانَ « وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ » وَكَانُوا قَدْ أَتَوْا إِلَى الرَّسُولِ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَسِيرِهِ إِلَى تَبُوكَ ، يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَفْتَتِحَهُ لَهُمْ بِالصَّلاةِ فِيهِ وَهُمْ يَقُولُونَ :

إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِى الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ . وَاللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ .

وَنَحْنُ نُحِبُّ أَنْ تَأْتِينَا فَتُصَلِّيَ فِيهِ . فَأَمْهَلَهُمُ النَّبِيُّ حَتَّى يَعُودَ .

وَكَانَ أَنْ عَادَ النَّبِيُّ . وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هذَا الْمَسْجِدَ مَا بُنِيَ إِلا لِيَجْتَمِعَ فِيهِ الْمُنَافِقُونَ حَيْثُ يَبْغُونَ تَحْرِيفَ كَلامِ اللهِ . وَالْعَمَلَ بِذلِكَ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَعَثَ إِلَى الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ وَأَحْرَقَهُ .

وَكَانَتْ هذِهِ ضَرْبَةً مِنَ الضَّرَبَاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي اعْتَزَمَ النَّبِيُّ أَنْ يَأْخُذَهُمْ بِهَا لِتَأْدِيبِهِمْ ، وَالَّتِي كَانَ لَهَا مِنَ الأَثَرِ فِي نُفُوسِهِمْ مَاجَعَلَهُمْ يَخَافُونَ وَيَرْتَعِدُونَ .

وَعَادَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُحَاسِبَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِمْ مِنَ الأَعْذَارِ مَا يُبَرِّرُ ذلِكَ .

وَجَاءَ هؤُلاءِ الْمُتَخَلِّفُونَ يُبْدُونَ لِلنَّبِيِّ مِنَ الأَعْذَارِ مَا يُبَرِّرُونَ بِهِ تَخَلُّفَهُمْ . وَتَقَبَّلَ النَّبِيُّ أَعْذَارَهُمُ الَّتِي يُبْدُونَهَا لَهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُحَاجَّهُمْ فِي صِدْقِهَا أَوْ كَذِبِهَا ، وَتَرَكَ ضَمَائِرَهُمْ وَسَرَائِرَهُمْ لِيُحَاسِبَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا .

وَجَاءَ ثَلاثَةٌ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ، هُمْ : كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ . وَمُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ . وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ ؛ فَاعْتَرَفُوا لِلرَّسُولِ بِتَخَلُّفِهِمْ دُونَ أَنْ يُبْدُوا عُذْرًا . فَأَمَرَ الرَّسُولُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ . فَلا يخَاطِبُوهُمْ . وَلا يُعَامِلُوهُمْ خَمْسِينَ يَوْمًا . وَجَاءَتِ الْبَشَائِرُ إِلَى الرَّسُولِ تُبَشِّرُهُ بِنَجَاحِ خَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ فى مُهِمَّتِهِ . وَتُعَرِّفُهُ أَنَّهُ قَدْ تَمَّ لَهُ أَسْرُ أُكَيْدِرَ أَمِيرِ دُومَةَ دُونَ قِتَالٍ يُذْكَرُ . وَدُونَ أَنْ يَتَكَبَّدَ فُرْسَانُ الْمُسْلِمِينَ أَىَّ مَشَقَّةٍ وَأَىَّ عَنَاءٍ .

وَكَانَ ذلِكَ مَالاقَاهُ خَالِدٌ . فَقَدْ دَخَلَ دُومَةَ فى لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ فَوَجَدَ أُكَيْدِرَ خَارِجَ حِصْنِهِ يَصِيدُ بَقَرَ الْوَحْشِ مَعَ أَخٍ لَهُ اسْمُهُ حَسَّانُ وَجَمَاعَةٍ مِنْ خَاصَّتِهِ . وَبَاغَتَهُمْ خَالِدٌ بِفُرْسَانِهِ وَكَانَ أَنْ أَسَرَ خَالِدٌ أُكَيْدِرَ وَبَعْضَ نَفَرٍ مِنْ رِجَالِهِ . وَفَاوَضَ خَالِدٌ أُكَيْدِرَ عَلَى أَنْ تَفْتَحَ مَدِينَتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَبْوَابَهَا أَوْ يُقْتَلَ هُوَ ثُم تُهَاجَمَ مَدِينَتُهُ ؛ وَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَ أُكَيْدِرَ وَخَالِدٍ عَلَى أَنْ تَفْتَحَ مَدِينَتُهُ أَبْوَابَهَا . وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِخَالِدٍ مِنْهَا أَلْفَا بَعِيرٍ . وَثَمَانُمِائَةِ رَأْسٍ مِنَ الْغَنَمِ . وَأَرْبَعُمِائَةِ

دِرْعٍ وَمِثْلُهَا رِمَاحٌ . وَأَنْ يَصْحَبَ أُكَيْدِرُ خَالِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَرَى الرَّسُولُ فِيهِ رَأْيَهُ .

وَنَاشَدَ أُكَيْدِرُ أَهْلَ مَدِينَتِهِ فِى أَنْ يَفْتَحُوا أَبْوَابَهَا فِدَاءً لَهُ فَفَتَحُوهَا . فَسَاقَ مِنْهَا خَالِدٌ . وَأَخَذَ مَاتَمَّ الاتِّفَاقُ عَلَيْهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمِيرِهَا .

وَبَعَثَ خَالِدٌ مَنْ يُبَشِّرُ الرَّسُولَ . ثُمَّ لَحِقَ الْبَشِيرُ بِالْمَدِينَةِ يَصْحَبُهُ أَسِيرُهُ . وَيَسُوقُ وَيَحْمِلُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَفَرِحَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ . وَجَعَلُوا يَتَفَرَّجُونَ مُعْجَبِينَ بِمَا عَلَى أَمِيرِ دُومَةَ مِنْ مَلابِسَ حَرِيرِيَّةٍ مُوَشَّاةٍ بِالذَّهَبِ

ثُمَّ كَانَ أَنْ صَالَحَ مُحَمَّدٌ ﷺ أُكَيْدِرَ عَلَى الْجِزْيَةِ . ثُمَّ أَطْلَقَ سَرَاحَهُ وَسَرَاحَ مَنْ مَعَهُ .

وَكَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِى هَذِهِ الْغَنِيمَةِ الَّتِى أَتَى بِهَا خَالِدٌ مَاعَوَّضَهُمْ عَمَّا كَانُوا يَنْشُدُونَهُ مِنْ وَرَاءِ غَزْوَةِ تَبُوكَ .

وَكَانَ فِيهَا لِلْمُنَافِقِينَ مَاجَعَلَهُمْ يُقَصِّرُونَ مِنْ أَلْسنَتِهِمْ . وَيَلْتَزِمُونَ حَدَّهُمْ .

عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ بِالْمَدِينَةِ لَمْ يَلْبَثُوا طَوِيلاً بَعْدَ ذلِكَ حَتَّى تَقَلَّمَتْ أَظْفَارُهُمْ . وَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ بانْهِيَارِ رُكْنٍ كَانَ يَدْعَمُهُمْ وَيَسْنِدُهُمْ . وَهُوَ مَوْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ شَيْخِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ .

وَمَعَ مَا كَانَ مِنَ ابْنِ أُبَىٍّ لِلنَّبِىِّ فَقَدْ صَلَّى النَّبِىُّ عَلَيْهِ . وَأَقَامَ عَلَيْهِ حَتَّى كُفِّنَ وَدُفِنَ .

وَلَمَّا خُوطِبَ النَّبِىُّ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا كَانَ مِنْ صَلاتِهِ عَلَى ابْنِ أُبَىٍّ بَعْدَمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ مَوَاقِفَ ضِدَّ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ قَالَ الرَّسُولُ :

لَقَدْ قِيلَ لِى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) فَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّى إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهِ !

وَعَزَّى النَّبِىُّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ - وَكَانَ مِنْ أَخْلَصِ الْمُسْلِمِينَ - ثُمَّ انْصَرَفَ .

obeikandl.com

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الثَّلاثَةِ الْمُتَخَلِّفِينَ الَّذِينَ نَهَى الرَّسُولُ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ ، وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ ، فَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا بِمَا رَحُبَتْ ، وَلَزِمَ اثْنَانِ مِنْهُمْ بُيُوتَهُمَا ، لا يَخْرُجَانِ مِنْهَا ، وَلا يُرِيَانِ وَجْهَيْهِمَا لِلنَّاسِ ؛ وَهُمَا مُرَارَةُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ . أَمَّا ثَالِثُهُمَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى الأَسْوَاقِ يَطُوفُ بِهَا فَلا يُكَلِّمُهُ أَحَدٌ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ فَيُعْرِضُ عَنْهُ . حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَسُدَّتْ فِي وَجْهِهِ السُّبُلُ ، أَقَامَ لِنَفْسِهِ خَيْمَةً عَلَى ظَهْرِ جَبَلِ سَلْعٍ كَانَ يَلْجَأُ إِلَيْهَا فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ .

وَمَضَتْ خَمْسُونَ لَيْلَةً عَلَى هَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ ، وَهُمْ مُنْقَطِعُونَ عَنِ النَّاسِ يَذْرِفُونَ الدُّمُوعَ حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَذْهَبَ بِأَبْصَارِهِمْ شِدَّةُ الْبُكَاءِ . وَبَيْنَمَا هُمْ فِي يَأْسِهِمْ وَوَجْدِهِمْ هَذَا جَاءَ كُلاًّ مِنْهُمُ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُهُ بِفَرَجِ اللهِ .

وَكَانَ كَعْبٌ بِأَعْلَى سَلْعٍ حِينَ جَاءَهُ الْبَشِيرُ يُبَشِّرُهُ ، فَخَلَعَ عَلَيْهِ مَا كَانَ يَلْبَسُهُ عِنْدَئِذٍ مِنْ ثِيَابٍ . ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ بِالْمَسْجِدِ . فَتَلَقَّاهُ الرَّسُولُ

بوَجْهٍ يَتَلأْلأُ مِنَ السُّرُورِ وَهُوَ يَقُولُ :

أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ !

فَسَأَلَ كَعْبٌ الرَّسُولَ :

أَمِنْ عِنْدِكَ الْعَفْوُ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟

قَالَ الرَّسُولُ : بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

وَهكَذَا عَفَا اللهُ عَنْ هؤُلاءِ الثَّلاثَةِ . وَصَفَحَ عَنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَادُوا فى وَقْتِ الشِّدَّةِ أَنْ تَزِيغَ قُلُوبُهُمْ .

وَكَانَتْ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَنْ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ :

(لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الذِين اتَّبَعُوهُ فى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ . ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ . إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ . وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

obeikandl.com

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٦٣٤
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3535 – 0

١ / ٩١ / ٣٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com

obeikandl.com